غرس الأخلاق بالمرانة

ومقام البيت فى ذلك

بقلم الأستاذ سلامة موسى

بيت من بيوت القاهرة يحتوى عائلة كثيرة الأولاد قد استأجرت خادمة صبية من الريف بأجر رخيص . وقد انتقلت هذه الصبية وهى فى الثانية عشرة من بيئة الحقل ونقل السماد والتفل فى الشمس الى بيئة الحضارة فى القاهرة حيث المنزل الذى فرش بالسجاد وأضىء بالمصابيح الكهربائية، وحيث المائدة التى يجب أن تمسح وتنظف بعد كل وجبة ، وحيث الاستحمام وغسل الملابس لا ينقطعان. فالانتقال عندها من الريف الى القاهرة ليس انتقالا جغرافيا فحسب ، وإنما يجب أن يكون انقلابا نفسيا أقل ما يحتاج اليه أن تتغير هذه الصبية فى إدراكها لمعانى النظافة والمواعيد ورنة الصوت، وأن تغير هندامها الجسمى ثم هندامها الذهنى.

ولكن الصبية ليست كفؤا لهذا الانقلاب. أوهو يسير فيها ببطء، وهى لذلك تصطدم مع الأولاد اصطدامات متوالية. تخرج من المنزل لشراء حاجة فتسير فى الشارع على الأسلوب الذى تعلمته فى الريف متوانية متلفتة متطلعة ثم تعود متأخرة فيعاملها الأولاد بالسباب والضرب . وقد تطلب منها ربة البيت تنظيف الأطباق أو غسل الجوارب فتؤدى هذين العملين وفقا لمستوى النظافة الذى بلغته فى الريف حين كانت تغسل "ثوبها" على حافة الترعة بلا صابون وبلا حاجة الى غلى الماء . فتجد من سيدتها أيضا السباب والضرب .

والمتأمل لهذا البيت لايسعه إلا الشعور بأن هذه الصبية هى الآن وسيلة لتمرين أعضاء هذه العائلة على أسلوب من المعاملة يقوم على السباب والبطش والكراهية والاحتقار . فإن ألفاظ " يابنت الكلب" " والله لأموتك" تجرى على ألسنة الأولاد فى البيت عند مخاطبتها وأحيانا تمتد أيديهم بالضرب وأرجلهم بالركل لجسمها الصغير . فالخادمة معذبة ومعذورة . لأنها نشأت على أقيسة ريفية فى النظافة والإنجاز لا تستطيع تغييرها بأقيسة المدينة . فهى لذلك تضرب لكى تغير هذه الأقيسة . ولكن الأولاد أيضا قد وجدوا فيها مرانة جديدة للأخلاق . هذه الأخلاق التى نتعلمها فى البيت والشارع أكثر جدا مما نتعلمها فى المدرسة. ونحن نحرص على ألا يختلط أولادنا بالصبيان الفاسدين من البيوت المجاورة . ولكننا ننسى أن فى وسط بيتنا صبية خادمة يتدربون بها على الشتم والضرب وسائر ألوان العنف . وأنهم سينشأون على اتخاذ العنف وسيلة للعاملة . فقد تعلموا مع هذه الصبية حين كانوا يغضبون

منها أن يعبروا عن هذا الغضب بالشتم والضرب . فيجب لذلك أن نعرف انهم لن ينسوا هذا الأسلوب حين يسبون و يغضبون من زملائهم أو رؤسائهم . لأننا وقت الغضب نعود الى أسلوب الطفولة ونعمل به . فإذا كنا قد تعلمنا التمالك والأناة فإننا نتمالك ونتأنى . واذا كنا قد تعلمنا السباب والضرب فإننا نسب ونضرب . لأن الغضب لا يترك لنا مجالا للتفكير .

فقد نعيش السنين ونحن نعتقد أننا نمتاز بالأخلاق الهادئة واننا نكره الاعتداء والعنف . بل ربما كان هذا اعتقاد من يعاملوننا . ثم تصادفنا حادثة فى الطريق أو المكتب فنفجر بالسباب أو نعتدى بالضرب . حتى اذا انتهت فورة الغضب نعود على انفسنا باللوم متعجبين من هذا الانفجار . والحقيقة ان هذا الأسلوب قد تعلمناه فى الطفولة حين كنا نعامل الخدم ونضربهم .

ولذلك لا يسعنا إلا أن نعدّ مثل هذه الصبية الخادمة فى هذا البيت من أسوأ الوسائل لتربية الأولاد . إذ هى بمثابة " أرنب التجربة " فى معمل العالم . ومن هذه التجربة يخرج الأولاد وقد تعلموا الوقاحة والصياح والعنف . ولكن ميزة هذه الصبية أنها رخيصة . ولذلك تحرص ربة البيت على استخدامها وتؤثرها على خادمة مسنة يحترمها الأولاد و يعاملونها بالحسنى ويخاطبونها بقولهم " ياخالة " لأنهم وهم يعاملونها باللفظ المهذب والإيماءة الرقيقة والرفق فى الطلب والاناة عند التأخير سيتخذون هذا الأسلوب أخلاقا دائمة تعيش معهم وتلازمهم سائر حياتهم حين يشبون و يختلطون بالمجتمع . أو بكلمة أخرى نقول إن احترام الخادم ضرورى لاحترام المجتمع واننا لهذا السبب يجب ألا نعرض صبياننا لخادمة صغيرة يرهقونها بالواجبات التى لم تستعد لها من بيئتها الريفية وترهقهم بالمخالفات فيلجأون إلى العنف ثم يرسخ هذا العنف فيهم عادة وأخلاقا .

ونحن نتعلم الأخلاق بثلاث طرق هى : اللقين أو الوعظ . وهذه أقل الطرق أثرا إذ هى لاتختلف كثيرا من تعلمنا للسباحة بقراءة كتاب يصف لنا السباحة على الظهر وعلى البطن ونحو ذلك . ثم نتعلم الأخلاق أيضا بالقدوة أى أننا مثلا نرى أبوينا يسلكان سلوكا خاصا فنقتدى بهما . وكثير من أخلاقنا العامة نأخذ به بالقدوة من الآباء والاخوة والغرباء ممن نعاملهم ومن زملاء المدرسة والمكتب أو المصنع أو المتجر . ولكن الطريقة الناجعة لغرس الأخلاق هى المرانة . ولكى نوضح التفاوت بين هذه الطرق نضرب مثلا : فنقول إننا لكى نعلم أولادنا الشجاعة :

١ — يمكننا أن ننصح لهم ونلقنهم ونعظهم عن قيمة الشجاعة ولكنهم بعد كل هذا لن يكونوا شجعانا إلا فى الأقل النادر بل الشاذ .

٢ — ويمكننا أن نكون أمامهم شجعانا نمارس بعض المهام والأعمال فى شهامة ونجدة وهم عندئذ يتأثرون بنا و يعود سلوكنا أمامهم إيحاء لنفوسهم .

(٣) ولكن أعظم أثرا من هذين الطريقتين أن تمرنهم على الشجاعة بالألعاب الرياضية والفروسية والمباريات وحمل السلاح . إذ أننا هنا قد غرسنا أخلاق الشجاعة غرسا بالتمرين والتدريب .

وكذلك الشأن فى البر أو الاستقامة أو الكياسة :

(١) فقد نقول للصبى يجب أن تحسن على الفقير ، ويجب أن تساعد الضعيف وتسعف الجريح . وهو يسمع ولكنه سينسى .

(٢) وقد يرانا الصبى ونحن نحسن على الفقير فيتأثر بأخلاقنا ويقتدى بنا أو لا يقتدى .

(٣) ولكن الطريقة الناجعة لكى نغرس فيه البر أن نعطيه القرش ونطلب منه أن يؤديه بيده للفقير ، أو أن نجعله يؤدى خدمة لأحد المحتاجين ويحس منها أنه قد ساعده بجهده وتعبه أو نجعله عضوا فى جمعية خيرية يهتم بشئونها ويؤدى مهامها .

ومن هنا ضرر الخادمة الريفية الصغيرة التى يتدرب الأولاد فى البيت على شتمها وضربها . فاننا نغرس فيهم الأخلاق عن سبيلها هنا بالمرانة والممارسة ، فى حين لو كانت هذه الخادمة كبيرة مسنة محترمة لاحترموها ومارسوا احترام المجتمع والأفراد عن سبيلها ثم ينشأون مهذبين ، وليس تهذيبهم عندئذ عائدا إلى التلقين والنصيحة . ولا إلى القدوة ، وإنما هو يعود إلى المرانة والممارسة .

* * *

ولننظر نظرة أخرى فى غرس الأخلاق ، فقد سبق أن ذكرت هذه المجلة وكررت القول فى أن البيت يجب ؟ ألا يكون مطعما أو فندقا ، وكان الهدف لهذا القول هو الزوج .

ولكن هل خطر ببالنا أن الأولاد أحيانا ينظرون إلى البيت هذه النظرة ؟ ويقفون منه هذا الموقف ؟ ونحن المسئولون عن موقفهم هذا ؟

لقد أوضحنا فى المثلين السابقين أن عاطفتى الشجاعة والبر إنما تغرسان فى الطفل أو الصبى أفضل الغرس وأثبته بالمرانة والممارسة . ولكن هل خطر لنا أن حب الأولاد لأبويهم محتاج أيضا إلى مرانة وممارسة ؟

إن الطفل ونحن نشترى له الحلوى أو اللعبة يحبنا وينتظر منا الزيادة . ولكنه بعد سنوات حين يدخل المدرسة لا يجد منا الحلوى أو اللعبة التى كانت تثير فيه من قبل عاطفة الحب لنا . ثم هو ينشغل بدروسه وينتظر من والديه " واجبات " وكذلك من الخدم . وقد ينتهى بألا يؤدى أى عمل للبيت بل ينتظر من الجميع خدمته . ونحن ننسى أن هذا الموقف الذى يقفه الصبى من البيت سوف يقفه أيضا من المجتمع . أى أنه ينتظر من غيره أن يخدموه ولا يكلف نفسه خدمتهم ، ولذلك تنشأ فى نفسه أنانية سيئة ربما تكون سببا لخيبته فى المستقبل .

وعاطفة الحب تنشأ عندما نخدم الناس أو يخدموننا . لأننا نحس حين نخدم أحدا أننا نتفضل عليه ونجهد ونتعب من أجله . وهذا بمثابة الجهد الذى ننفقه على صنع أداة يبعث فينا الحب لها . فإذا خدم الأولاد فى البيت أحسوا من هذه الخدمة حبا للبيت وتعلقوا به وشعروا بكرامتهم إزاءه . وهو عندئذ لا يكون فندقا أو مطعما . فالحب يحتاج إلى مرانة . ومرانته هى العمل والخدمة . فمن مصلحة الأولاد أن يشتركوا فى بعض الواجبات — مهما تكن صغيرة تافهة — فى البيت حتى تنبعث فيهم عاطفة الحب مقرونة فى نفوسهم على الدوام بالخدمة والإنجاز .

ومن المشاهد أن التعلق بالأبوين المسنين كبير فى الأبناء أى أكبر من التعلق بالابوين حين يكونان دون الخمسين مثلا ولا نكاد نعرف سببا لذلك الا أن عجز الشيخوخة قد بعث الابناء على العناية بآبائهم وخدمتهم . فكان من أثر هذه العناية وهذه الخدمة أن نمت عاطفة الحب عندهم .

وخلاصة القول إننا لكى نغرس الأخلاق الحسنة فى صبياننا يجب علينا :

(١) أن نكفهم عن ممارسة السباب أو الضرب للخادم أو لا نستخدم سوى خادمة أو خادم محترم لا يجرؤ الأطفال على سبه أو ضربه .

(٢) أن نعودهم الخدمة فى البيت حتى تزول عنهم الأنانية والشعور بأنهم يجب أن يكونوا مخدومين لا خادمين .

(٣) أن نعودهم سائر الأخلاق بالمرانة أو الممارسة . فالاستقامة فى المعاملة والشجاعة والبر والحب يجب كلها أن تستند إلى ألوان من النشاط الجسمى .

(٤) أن نذكر على الدوام أن الأسلوب الذى تعامله الطفل فى البيت هو الأسلوب الذى سيعامل به المجتمع عند ما يكبر .

سلامه موسى